قصتان

محمد ديبو: شاعر وقاصّ من سوريا. صدر له ديوان، ومجموعة قصصيّة بعنوان خطأ انتخابيّ (بيروت، ٢٠٠٨)

١ ـ خلق

بعد مليار عامٍ من تشرّد الرجل في ساحات الدنيا، حمله اللهُ إليه وسأله:

– يا آدم، أتعرفُ لماذا كنتَ في الأرض معذَّبًا؟

– نعم مولاي، لأنّني أكلتُ تفّاحة الخطيئة.

غضب الله وطرده من رحمته مرةً أخرى قائلاً:

– عدْ إلى دنياك، علّ العذاب يعيد إليكَ رشدَك.

تاه آدم في الأرض مجدّدًا. عاشر الوحوشَ وعاش في البراري. غاص البحرَ وتحمّل أهوالَه. غدر بالطبيعة وغدرتْ به. أقام الحروبَ، وأشعل الفتنَ، وأقلق الآلهةَ، وسبى النساءَ انتقامًا. أعلن القتلَ باسم الشريعة، وقتل بشرعيّتها البشرَ والحيوانَ والجمادَ. حجّب المرأة، وحجبها عن ذاتها وذاته وذاتِ الله، قائلاً: سأقيم مملكةَ الله على الأرض لأكفّر عن ذنبي.

طلب اللهُ من ملائكته إحضارَ آدم بعد مليار عامٍ أخرى وسأله:

– يا آدم، أتعرفُ لمَ كنتَ معذَّبًا في الأرض؟

– نعم مولاي، لأنني أكلتُ تفّاحة الخطيئة واستمعتُ إلى صوتها الحوّائيّ وفتنتِها الغامضة.

غضب اللهُ غضبًا شديدًا:

– اذهبْ، ولا تعد قبل أن تعرف وجهي.

غاص آدم في بحور المعرفة. أعاد قراءةَ شرائعه وكتبه المقدّسة. أوّلها وفسّرها وفق وجوه متعدّدة. أشرع نوافذَها للريح، ومزج نصوصَها بهواء الواقع وترابِ الشكّ. نزع عن المرأة خطيئتها، وتصالح مع ماء أنوثتها، ثم قرّر الصعودَ باتجاه مدارج الله. وعندما بلغ بابَه سأله:

– يا آدم، أتعرفُ لمَ كنتَ في الأرض معذَّبًا؟

أطرق وجهَه في الأرض خجلاً وقال:

– نعم، لأنني اتهمتُ حوّاء بتحريضي على الخطيئة.

فرح وجهُ الله وقال له: ادخلْ جنّتي وعد إليّ.

دخل فوجد حوّاءَ تتربّع على فراشٍ من عسجدٍ وماء، وهي تقول:

– تأخّرتَ يا آدم.

– ألم تكوني معي في الأرض؟!

– بل كنتُ هنا أنتظر انتهاءَ ضلالك. تعال ادخل عسجدي ومائي.

٢ ـ وليمة

سكونٌ يملأ المكان حدّ الرعب.

رائحةٌ عفنةٌ تزكم الأرواح.

ضوءٌ شحيحٌ لا يبدّد حلكةَ الجسد.

أصواتُ موتى تعرْبد في فضاء الزمان.

أشباحٌ توزِّع الحلوى على المنتظرين على أبواب الموت.

بقعُ دمٍ مبعثرة على جدران العار... أضيفَ إليها دمي منذ هديل...

أحرّكُ روحي لأتأكّد أنّني لا أزال على قيد العذاب. يداي موثقتان إلى سلّم الجنون. السلّم معلّقٌ على حبل الهواء. رجلاي تتأرجحان على برزخ الخواء. رائحة العفن لم أعد أشمّها لكني أحسّ بها تملأ الجسد.

تومض الخلايا في الدماغ الذي استيقظ متذكّرًا «حفلةَ» الأمس .

أحقّاً كان الأمس؟

لا أعرف هنا زمانًا أو مكانًا، ليلاً أو نهارًا؛ فالزمان والمكان كلاهما ظلام.

أحاول تحريكَ يديّ قليلاً، فينغرس السلكان المعدنيّان في لحمي، وينفر دم وقيءٌ يبدّدان راحة القلب.

هل ابتدأ موسمُ الموت؟

لمَ أنا هنا؟

لِمَ لَمْ أسمع كلامَ أمي وأترك الوطنَ لجنونه وجنودِه وحثالته؟

يُعتصر القلبُ من دمعة الأم، وخرائب الوطن، وخياناتِ الأصدقاء.

أصواتُ خطًى تقترب، خطًى لها شكلُ الموت.

تُستنفر حواسّي العشرُ التي خِلْتُها لن تستيقظ أبدًا، تستجدي الملائكةَ والشياطينَ أن لا يكون اتجاهُ خطى الموت نحوي؛ فالحفلة الأولى لم تكد تنتهي بعد.

الخطى تقترب.

القلبُ يهلع، والروحُ تمور في فضاء الرعب باحثةً عن منفذ أمان.

ضوءٌ مباغتٌ يملأ المكان، يعمي العيونَ المشبعةَ بكثافة الظلام.

صريرُ بابٍ يُفتح. خطى أربعة كلابٍ تقترب؛ سعارُها لا يشبعه سوى دمي المباح.

يَصِلون إلى جسدي/ وليمتِهم العامرة، ويبدأون

ب

ا

ل

ن

هـ

ش...